

الفصل الأول

قيام عيسى بالدعوة

(أ) الأصول اليهودية للمسيحية - عيسى الناصري : نقص المعلومات عنه - كيف ولماذا حلت أسطوره محل تاريخه - أصول الأنجيل - كيف وضعت هذه الأنجيل - كيف استطاع الإيمان أن يتكفل بمواضع النقص فيها - كيف تبحث مشكلة قيام عيسى بالدعوة .

(ب) البيئة التي خرج منها عيسى - البلد اليهودي والبلدان المجاورة : مادة دينية ضخمة متوافرة أمام الاتجاهات التأليفية المحددة - التربية اليهودية الكاملة لعيسى - العالم الفلسطيني في عهد هيودوس الأكبر - « القسس » والعبادة - « الكتبة » والتشريعات الدينية - الشعب والدين الحى - ترقب المسيح خصائص اليهودية في إقليم الجليل .

(ج) أساس قيام عيسى بالدعوة : الأمل في ظهور المسيح - علاقة عيسى بالمعلمين - موضوع أحاديته : ظهور مملكة الله والتوبة - هل ظن أنه هو المسيح ؟ - معنى ومدى الأسماء التي تطلقها عليه الأنجيل : ابن الله ، ابن داود ، ابن الإنسان - عقبات مختلفة ومساائل تبلو صحيحة : عيسى النبي اليهودي .

المسيحية إذن تنبع أساساً من حركة يهودية . وهى تبدو أولاً - وعلى وجه التخصيص كظاهرة تهم الحياة الدينية لليهود ، وتميز بها البيئة الفلسطينية - ولا يمكن تصور قيامها خارج نطاق العالم اليهودى . وقد بدأ بهذه الحركة - التى تعددت آثارها فيما بعد فأبانت عن خصوصيتها - عيسى الناصرى . ولا نغنى كلمة الناصرى فى غالب الظن « رجل الناصرة » ولكن « الناظر » أى : « قديس الله » .

ولا أعتقد أنه يمكن التشكيك فى وجوده على غرار ما يحاوله البعض حتى أيامنا هذه . ولكننا متى ما أثبتنا وجوده التاريخى ، فإننا بذلك نضع أنفسنا مباشرة فى تيه من التاريخ كله ظلمات وشكوك . ولا أدل على ذلك من أن البحث الدقيق الذى دار فى السنوات الأخيرة على أساس من الوثائق الأصيلة ، لم يثبت سوى استحالة تصوير حياة عيسى فى شيء من اليقين والتثبت . ويجب علينا أن ننظر إلى الكتب التى تدعى سرد سيرته على أنها مؤلفات تستند إلى الكثير من التحكم والتزعزعات الذاتية . ونستطيع إدراك السبب فى هذا الغموض من تخيل أحاسيس هؤلاء الرجال الذين استمعوا إلى دعوة عيسى وآمنوا بها ، ثم هالهم وأياسهم تعذيبه وصلبه ، وأعلنوا بعد ذلك بعثه . هؤلاء لم يشعروا البتة بالحاجة إلى تدوين ذكرياتهم أو رسم شعورهم عنه . إنهم لم يفكروا فى أن يكتبوا إلى أجيال قادمة كانوا على يقين من أنها لن تأتى . فالعالم - عالم الظلم والخطايا ولذات الجسد - كان فى عقيدتهم وشيك النهاية . وكانوا يترقبون بين لحظة

وأخرى توقف الحياة البشرية وظهور المسيح المنتصر في السماء .
ومن ناحية أخرى كان لابد أن ينعكس إيمانهم القوي على ذكرياتهم فيؤثر
في صورها :

كانوا على يقين من أن عيسى الناصري هو المسيح الذي وُعدت به
إسرائيل ، وأنه يجلس إلى جانب الرب في السماء ، مرتقباً الساعة . ودفعهم
هذا اليقين إلى البحث عن معان عميقة لمراحل حياته المتواضعة ، ونجاح دعوته
المحدودة ، وطريقة تعذيبه الوضيعة . ودفعهم كذلك إلى أن يستخرجوا التعاليم
والتنبؤات من أقل الحوادث والأحداث شأناً ، وأن يطبقوا على أساذهم كل
نصوص التوراة التي قيل إنها تتعلق برسول يهوه المبارك الموعود ، فيجدوا في
حياته مصداق ما أنبأت به هذه النصوص ، وهكذا كان خيالهم ، بدافع
التقوى ، يزين الأحداث ويصبغها في إطار من التعليقات والإضافات التي
يفرضها إيمانهم - بطريقة ما - وكأنها من لوازم سيرة عيسى ، وكأنها حقيقة
لا شك فيها ، تبرز وتحدد طبيعته وعمله بوصفه النبي المنتظر . واسترسلوا في
سداجتهم وبساطة مشاعرهم ، فأصبحوا لا يفرقون بين الخيال والذكريات
الحقيقية . ولقد خلطوا بينهما في تلك التعاليم التي نشروها من حولهم . وأصبح
أتباعهم لا يستطيعون التمييز - حتى لو أرادوا - بين واقع الأحداث وما أضفاه
عليها الإيمان من صور شتى . وكان تمسكهم للعقيدة لا يدع لهم مجالاً لمقاومة
ما توحى به الرؤى والتهبؤات الفردية (فكل ما يمليه اتصال الواحد منهم اتصالاً
تخيالياً مباشراً بالروح القدس يؤخذ قضية مسلمة وفرضاً ضرورياً على الجميع ،
يؤمنون به إيماناً لا يعلو عليه - بل لا يدانيه - إيمانهم بالواقع المباشر الذي يمليه
التاريخ) .

فتلك التعاليم مثلاً التي قال القديس بولس إن عيسى أوحى بها إليه روحياً ، كانت تبدو له أكثر ثقة و يقيناً من كل ما كان يحكيه له صاحباً المسيح ، بطرس ويعقوب .

وإذن فنجد الجيل المسيحي الأول تكونت التقاليد التي أيقن المؤمنون بأنها التاريخ الصحيح لأستاذهم ، تكونت من عناصر متباينة تختلف درجات الحقيقة فيها كثيراً . ولم تظهر بذور الشك في قرب العودة المأمولة للمسيح إلا عندما انتهى أجل هذا الجيل الأول من المؤمنين ، وبانتهائه لم يعد هناك شهود « مباشرين » لحياة المسيح . ثم رأى الحريصون من المسيحيين أنه قد يكون من المصلحة أن يثبتوا بالتدوين تلك الذكريات التي افترضوا صحتها في الأخبار المتوارثة شفاهاً .

وغالب الظن أنه قد ألفت في هذه الفترة كتيبات سجل فيها محرروها ما رأود جديراً بالعناية من مجموعات حكم منسوبة إلى أستاذهم ، أو حكايات عن مراحل حياته وجدوا فيها عبرة وتميزاً لشخصيته ، أو وصفاً لـ « آياته » ، أي لتلك المعجزات التي قام بها في سبيل إقناع الجهلاء . . ولم يعن أحد بما نسميه اليوم بـ « التحقيق التاريخي » ، ذلك المنهج الذي يفترض الشك ، والذي يتنافى مع دوافع الإيمان المطلق لدى هؤلاء الكتاب الذين افترضوا كل الافتقار إلى روح النقد ، موجهين الاهتمام ، قدر استطاعتهم ، إلى إثبات صحة الآمال المسيحية وإقناع المترددين ووعظ المؤمنين .

وكانت هذه الكتيبات - وأهمها مجموعة الأحاديث المنسوبة إلى متى والروايات المنسوبة إلى مرقس - المصادر الأولى لأناجيلنا ، إلا أنها لم تكن لتضم سوى عناصر شتى مشوشة من حياة عيسى كما تصورها المسيحيون عندما أوشك

جيل أصحابه أن ينقرض وقد حاول المحررون المتابعون لتلك الأناجيل ، خلال
الثلاث الأخير من القرن الأول المسيحي أن ينسقوا رواياتهم ويدخلوا عليها شيئاً
من الانسجام . ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام مادة يصعب مراسها ، فضلاً عن
شبه استحالة تحقيق الواقع وتخليصه من الإضافات الخيالية التي كانت في طيات
الروايات المتوارثة . ولقد كان من العسير التمييز بين الأحداث التاريخية وبين تلك
التي فرض الإيمان وقوعها من أجل أن « تكمل كلمة الكتاب » أى بين
الذكريات الحقيقية الحية وبين وحى الروح . ولم يكن هناك إلى جانب ذلك
دافع يدفعهم إلى الجدل في طلب هذا التحقيق وهذا التمييز .

لقد وجدوا أنفسهم أمام مادة يصعب مراسها : فجموعات الحكم لم تكن
تلتزم في دقة دقيقة بالظروف والأحداث التي أنطقت المسيح بها . واختلف
سردها - الذى لم يرق على أى أساس طبعي - من كتيب إلى آخر ، وكذلك
كان الأمر فيما يتعلق بالروايات الخاصة بالسيرة نفسها . فهى لا تحكى سوى
فصول ومقتطفات من حياة المسيح لارابط بينها ، وتختلف تفاصيلها باختلاف
الرواة . فكان على محررى الأناجيل أن يغربلوا ثم يختاروا ، ثم ينسقوا ، سيرة
متكاملة من هذه المتناثرات المشوشة .

وتصفح الأناجيل وحده يكفي لإقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى
« تركيبات » واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث ، مما يتحتم معه
القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ولم يستلهموا تاريخاً ثابتاً يفرض تسلسل
حوادثه عليهم ، بل على العكس من ذلك اتبع كل هواه وخطته الخاصة في
تنسيق وترتيب مؤلفه . ولاشك أيضاً في أنه لم يعتمد أحد منهم على سلسلة كاملة
مترابطة من الوقائع تسمح له بأن يضع صورة واضحة لحياة المسيح ، فلم يكن

عملهم إذن سوى أن يربطوا - في كثير أو قليل من المهارة - بين أطراف من الرويات ، وأن يشكلوا منها سيرة افتقرت إلى الوحدة الحقيقية ، كما أن عناصرها تبدو مجموعة في إطار مصطنع . وإننا لنلاحظ في ثانيا هذه السيرة الإنجيلية نقصاً كبيراً وفجوات خطيرة نلاحظها حتى في إنجيل مرقس الذي يبلغ به الحرص أن نحاشي الحديث عن مولد عيسى وطفولته .

ولكن الإيمان لا يرضيه التجاهل ، بل إنه يتوصل دائماً إلى معرفة ما هو بحاجة إلى معرفته ، وخيال الأتقياء يخدمه دائماً . لذلك نرى الإنجيل الأول ، ثم الإنجيلين الثالث والرابع ، يحاول كل على طريقته أن يسد هذا النقص ويملاً تلك الفجوات ، فيروى لنا - فيما يتعلق بالفترة التي تجاهلها الإنجيل الثاني - حوادث قد تختلف وقد تتعارض . ولكنها تتشابه جميعاً في تعلقها بالمعجزات ورغبتها في الوعظ والإرشاد ومن الواضح أنه لا يربط أيّاً منها بالواقع التاريخي علاقة تذكر .

ومن المرجح كذلك أن الأحداث الخاصة بالصّلب كانت قد فقدت الكثير من وضوحها في ذاكرة المؤمنين قبل تحرير الأناجيل ، وأنها تأثرت في مخيلتهم بالأساطير المختلفة الشائعة في الشرق ثم إنها فسرت تفسيرات غُيرت وجُددت في جوانب كثيرة أساسية منها . وكيف - من ناحية أخرى - لا ينسبون إلى إرادة الأستاذ الأول وإلى تعاليمه ومسته كل الأفكار الخصبية التي تمخضت عنها دفعة الإيمان الحى لدى أتباعه وقد اضطروا اضطراباً ، بسبب موته ثم بعثه ، إلى أن ينظروا إلى الماضي والمستقبل من خلال صورة المنقذ المنتظر كيف - مثلاً - لا يجعلونه الداعي الأول إلى طقوس التعميد وإلى عقيدة تحول الخبز والخمر المقدسين إلى لحم ودم المسيح ؟ كيف لا يكون هذا بعد أن أصبح التعميد - منذ

جيل الدعاة الأول - خاتماً للإيمان ، وأصبحت عقيدة التحول هي الصلة
المباشرة بين الإخوة في الدين وبينهم وبين المسيح ، حسب تفسيرات القديس
بولس ؟

وهكذا لم نعد نستطيع أن نميز في وضوح الجوانب التاريخية لشخصية
عيسى ، ولم نعد نملك المراجع اللازمة لتحديد أحداث حياته في دقة .
وخلاصة القول فيما يتعلق بشخصيته أنه يمكن التكهن ببعض ملاحظاتها من
خلال الروايات الإنجيلية ؛ أما سيرته فليس لنا سوى الأمل في التعرف على شيء
من مراحلها . والأمر في كلتا الحالتين لا يختلف عما قلناه فيما يختص بكل ما نسب
إلى عيسى من تعاليم : يجدر بنا عند بحثها ألا نؤكد شيئاً منها إلا في حرص
شديد .

بيد أننا نعلم أن عيسى هذا ترك عائلته في يوم من الأيام وخرج إلى إقليم
الجليل مبشراً وواعظاً . فلماذا ؟ ... هل سلك هذا المسلك لأنه شعر بحاجة
نفسه إليه ، ودفعته عاطفة لا تقبل مقاومة ... عاطفة نشأت بالفطرة بين
جوانحه ولا نستطيع لها تفسيراً ؟ ... لا شك أنه كان للدافع النفسى أثره في هذا
السلوك ، وإن كنا لا نستطيع تصوره إلا على أنه نتيجة عوامل وظروف بيئة
معينة . .

ومسألة قيام عيسى بالدعوة تعود بنا إذن - تاريخياً - إلى تفهم البيئة التي
خرج منها .

(ب)

لسنا اليوم على معرفة تامة بتلك البيئة التي نشأ فيها عيسى ، ولكننا خطونا بعض الخطوات في سبيل معرفتها ، ونلمح لها وجهين مختلفين بل هي تبدو مزدوجة في تركيبها :

فالمسيح قد ولد يهوديًا ، ثم نشأ في بيئة يهودية استعار منها وحدها - حسب ما نعلم - عناصر ثقافته الفكرية والدينية .

يبد أن أمة إسرائيل لم تكن قد وصلت من الانعزال عن العالم الخارجى إلى ما تستطيع به أن تتجنب تماماً تأثيرات الشعوب السريانية والكلدانية التي عاشت بجوارها . كما أنها تأثرت ولا شك بصلاتها المستمرة بالفاتحين الإغريق ، سواء منهم من جاء من ملك البطالسة بمصر ، أو من إمارات السلوقيين بالشام يضاف إلى هذا تأثير وفود الحجيج المتفاوتة العدد إلى القدس - في المواسم والأعياد - من أبناء الجالية اليونانية التي هاجرت إلى بلاد اليونان واستقرت بها .

كل ذلك أدى إلى تشرب بنى إسرائيل بالكثير من الأفكار الخارجية ، خلال القرون الثلاثة السابقة للتاريخ المسيحى .

ومن ناحية أخرى نجد - حول العالم اليهودى الفلسطينى - بيئة ثانية مشركة وهذه البيئة إن لم تؤثر مباشرة على عيسى فإنها جذبت إليها أتباعه عقب موته : تلك هى البيئة السورية والفينيقية التي كانت تحد فلسطين في الشمال والغرب والجنوب الغربى ، والتي لا ترتسم معالمها اليوم بوضوح في أذهاننا ، وإن كانت آتخذ مصباً لروافد كثير من التيارات الفكرية والعقائدية وللخرافات والأساطير

أو آثار ديانات القرون الماضية إلى جانب الديانات المعاصرة . وتلك هي أيضاً بيئة ما بين النهرين في الشرق ، تتفاعل فيها التيارات الدينية التابعة من الهند وفارس والمنتية إلى أرض بابل ، الأرض التي تعدّ مصدراً للكثير من الأساطير القديمة ، المنتشرة بين كل الشعوب السامية وللنظريات التي يمتزج فيها علما الفلك وما وراء الطبيعة لتفسير سير الكون والخلقة . ثم كانت هناك البيئة المصرية من ناحية الجنوب ، حيث تطورت العبادات المحلية ونمت ونحت نحو آفاق أوسع وأشمل بتأثير الفكر اليوناني الخصب . وأخيراً نجد البيئة الإغريقية من ناحية الشمال ، في الإقليم الذي نسميه اليوم بآسيا الصغرى نجدها أكثر تعقيداً واختلاطاً في الفكر ، ولكنها أيضاً أكثر خصوصية وإثماً بسبب وضعها كمركز هام للديانات . فإلى جانب العبادات القومية - وكان بعضها ما يزال حياً قوى التأثير - وأساطير الديانة الأولمبية ، وتأملات الفلاسفة اليونانيين وعقائدهم - وقد انتهى بها الأمر إلى التبسيط حتى تكون في متناول عامة الناس - إلى جانب كل هذا ، نجد في تلك البيئة مؤثرات من سائر البيئات الأخرى التي ذكرناها ، بما فيها البيئة اليهودية .

كانت هناك إذن مادة دينية ضخمة ، خاملة في بعض نواحيها ، وإن كانت عناصرها قد بدأت تتداخل وتتظم في تركيبات مختلفة ترمي إلى تأليف المذاهب وتبلغ في ذلك درجات متفاوتة من الإغراب . كانت هناك مادة دينية ضخمة قابلة لأن تتشكل وتتطور في سهولة حسب رغبات من يريد استغلالها ، فكانت بالتالي مصدراً يكاد لا يفنى لمستقبل المسيحية ولكننا نكرر هنا أن المسيح نفسه - حسب ما تؤكد سائر الدلائل - نشأ وتكون في بيئة يهودية بحتة . وإنه لمن ضروب التخمين الذي لا يقوم على أساس ملموس أن يقال بتأثير مباشر للبوذية

على عيسى . ولقد انتشرت المسيحية أول ما انتشرت خارج فلسطين ، على أيدي اليهود أنفسهم ، فلتلق نظرة ، بادئ ذي بدء ، على العالم اليهودي ولسوف نتطرق فيما بعد إلى محاولة تحليل الجوانب الدينية للبيئات الأخرى عند حديثنا عن انتشار الدعوة المسيحية فيها .

ومن الجدير بالذكر : أن البيئة اليهودية في عصر هيرودوس الأكبر (المتوفى عام ٤ قبل الميلاد) كانت غاية في التعقيد ، ظاهرها وحدة الجنس والعادات والتقاليد والدين ، وباطنها فرقة أصيلة في صفوف أهل فلسطين الذين انقسموا شعبين يختلفان اختلافاً كبيراً في الاتجاهات الفكرية والتزعات الدينية .

والعلة الأولى لهذا الانقسام ترجع إلى عهد بعيد : إنها ترجع إلى العهد الذي رأى فيه ملك بابل أن يُهَجَّر نحو ضفاف الفرات طوائف من اليهود الذين انهمزوا أمام جنده . ولكنه في تنفيذ خطته هذه ، لم يهتم إلا بالعائلات المعروفة التي كان لها قدر من السطوة ، أما أهل الريف وعامة الشعب فقد ظلوا في ديارهم يمارسون دين إسرائيل القديم ، بتقوى أكيدة وإخلاص لـ « يهوه » ، ولكن مع شيء من التحرر الذي لا يرفض التعامل والاتفاق مع الآلهة المجاورين أو مع المؤمنين بهم . وكان هؤلاء الفلاحون الفلسطينيون البسطاء يؤمنون بأن اليهودية دين رجال ، فلا يتهربون من الزيجات المختلطة التي تجلب إلى عروق الشعب المختار دماء جديدة من بنات الشعوب الأخرى . أما أهل المهجر - إذا استثنينا منهم تلك الفئة التي دفعها اليأس إلى عبادة أصنام المتصرين - فقد تطوروا في سرعة سريعة : وجدوا أنفسهم مضطرين اضطراراً إلى إعمال الفكر في صلتهم بـ « يهوه » ، وفي العهد القائم بينه وبين شعبه ، وفي أسباب محنتهم . ثم راحوا يتخيلون لأنفسهم سبيلاً إلى مستقبل أفضل ووسيلة للخلاص من مثل تلك

الكوارث التي حلت بهم . واعتقدوا أن المحن التي مرت بها إسرائيل كان سببها عدم الوفاء بالعهد ، وأن الطريق إلى إرضاء الإله هو الخضوع في عبادته لحرفية النصوص والتمسك بالشعائر المفروضة في غير ما لبن أو تحرر ، أى في الواقع : اتباع شعائر غاية في الدقة والحرص ، تمنع تسرب أدنى نزعة إلى الوثنية . ويعود الفضل في تثبيت هذه الشعائر ، وفي تدعيم الاتجاه نحو شرع محدد - وقد قن في صورة سايرت الرغبات الجديدة - إلى أنبياء المهجر ، وعلى الأخص منهم إزكيال . فلما سمح قورش للمنفين بالعودة إلى أوطانهم (عام ٥٣٨) ، لم يقتنم الجميع تلك الفرصة ولكن العائدين منهم إلى فلسطين جلبوا معهم الشرع الجديد والروح الجديدة ثم إنهم فضلاً عن ذلك ، ظلوا على اتصال وثيق بإخوانهم الذين استقروا بمملكة بابل ، والذين أيدوهم بأموالهم ودعايتهم ونفوذهم في بلاط ملك الفرس ، حتى يفرضوا أنفسهم على أهل فلسطين ممن لم يعرفوا المنفى . وكان الرجال الذين أصلحوا المعبد والعبادات - وعلى الأخص منهم إسدراس ونحيميا - من اليهود الوافدين من مملكة بابل ، وكانوا يرفضون رفضاً قاطعاً الزيجات المختلطة ، ولا يقبلون أى تنازل تجاه الديانات الخارجية . وكانوا « كبة » أى رجالاً تخصصوا في دراسة الشرع وتفسيره ، فراحوا ينشئون إلى جانبه مجموعة وافية من الشروح الشرعية للإفتاء في المسائل الدينية التي لم يكن لها بدٌ من التكاثر بعد أن فرضت الطهارة المطلقة شرطاً أساسياً للتقوى . وإذن ففي الفترة التي تمتد من عودة يهود المهجر حتى مولد عيسى ، نرى أولاً طبقة كبيرة من رجال الدين - طبقة إكليروس - تنشأ من جديد حول المعبد الأعظم ، وتعمل على انتظام العبادة فيه ، ولكنها لا تختص بدراسة أو تعليم الشرع ، بل تتجه بطبيعتها إلى الطقوس والنصوص فحسب ؛ ثم نرى ثانياً نمو

طبقة أخرى هي طبقة « الكتبة » ، أى فقهاء الشرع ، يتنافس أعضاؤها على تحليل أوجه الكتاب المقدس المختلفة ، يكتبون عليها بالشروح والتعليقات وينتهون فى كثير من الأحيان - برغم تقواهم الشخصية المخلصة العميقة - إلى إغراق إيمان الروح الحرة الفطرية تحت ركام المسائل الشكلية ، فيجادل بعضهم مثلاً فيما إذا كانت البيضة التى تضعها الدجاجة فى يوم سبت تعدّ بيضة طاهرة أو فيما إذا كان الماء الذى يسكب فى إناء مدنس يعتبر مدنساً حتى منعه . . ولا نشك فى أن بعض هؤلاء الفقهاء تأثروا - دون أن يشعروا - بالنظريات اليونانية فى الإله والكون والإنسان فراحوا يتسامون وبيالغون فى التصوير القديم لـ « يهوه » ، ويوسعون من مفهومه بحيث أصبح هو : الإله بالذات ، الإله الذى لا يحدّ والذى لا يكاد الإنسان يجد له اسماً ، كما نزعوا إلى تبني مذهب كوفي ومذهب إنسانى يتميزان بالثنائية ، حيث تتعارض فيهما الروح والمادة ، أو النفس والجسد ومن هنا بدأت الديانة القومية لبني إسرائيل تتخذ صبغة عالمية وإنسانية ، على عكس ما خطط لها التشدد الدينى فيما سبق من اتجاهات . وإن هذه الصبغة لتظهر سريعاً وفى عمق بين الجاليات اليهودية بالمهجر - وسوف نعود إلى الحديث عن ذلك - ولكنها فى أول عهد المسيحية ، كانت أيضاً قد انتشرت وأثرت فى فلسطين منذ سنوات كثيرة .

كان الشعب إذن بطيع رجال الدين ، لأنهم مرشدوه القوميون : فالخبر الأكبر هو وحده المنوط به تمثيل إسرائيل أمام الأسياد من فرس أو إغريق ، وأصبحت فلسطين بذلك دولة يستمد حكامها ولايتهم من الله ، وظلت على ذلك فى عهد المكابيين الذى ظن فيه اليهود أنهم حققوا استقلالهم . فى ذلك العهد كان الحاكم ملكاً وقسّاً أكبر فى آن واحد .

ومن ناحية أخرى نرى هذا الشعب يبدى إعجاباً بالكعبة ، هؤلاء العلماء المدققين .

والواقع أن الطقوس التي كان يتمسك بها رجال الدين في غير ما اقتناع ، والعلم المتصنع المترفع لدى الكعبة ، لم يؤثر أى منها تأثيراً ذا شأن في روح الشعب ، ولم يروظمأه إلى التقوى ، بل نرى هذا الشعب يسير بالتدريج في السبل التي يخطها له التشدد الديني ، فيقاوم المؤثرات الخارجية قدر ما يستطيع وقد يبدى غضبه لميل القادة بشكل ملحوظ إلى الأخذ بأطراف التيارات الثقافية اليونانية . إلا أنه باق على حبه لـ « يوه » قلباً وروحاً ، يصلى له في أيام الشدة بحرارة تنبع من تقوى العهود القديمة ، لا تحدها الأشكال الجديدة للعبادات ، أى أن دينه - بعبارة أخرى - كان يحيا وينمو ، بل إنه كان يرتبط بعقائد غير يهودية الأصل أتت إليه من الشرق ، مثل تلك المتعلقة بدور الملائكة والشياطين ، أو بالحياة الأخرى ويوم القيامة ، وفي الوقت نفسه كان يستقى من المحن التي مر بها اليهود في هذا العصر - فقد عانوا كثيراً من ظلم المصريين والسوريين والرومان ، ومن ظلم أنفسهم ، خلال القرون الأربع التي سبقت مولد عيسى - كان يستقى من هذه المحن تأييداً لأمل قديم : أنه يتربح ويأمل بكل جوارحه مجيء المسيح الموعود الذي سوف تسترجع به أمة إسرائيل ما عرفته من مجد أيام داود ، بل أكثر منه .

وانتهى الكعبة أنفسهم إلى تقبل هذه الاتجاهات في العقيدة الشعبية وإلى شرحها والتعليق عليها ، وبالتالي إلى اعتمادها وتأمينها . وكلما أتت الأحداث بما يخالف الأمل المنشود ، وازداد عنف الطغيان الأجنبي ، كلما قوى هذا الأمل في صدور السذج والبسطاء واحتلّ مكاناً أكبر من عقيدتهم الدينية .

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن اليهود - مثلهم مثل غيرهم من شعوب العالم في هذا العصر - لم يكونوا على علم بشيء مما نسميه اليوم بـ «القوانين الطبيعية» ، أى الترابط المحدد اللازم بين العلة والمعلول . وكانوا يؤمنون بأن إلهه قادر على كل شيء فلا يفرقون بين الظواهر الطبيعية وبين المعجزات ، بل كانوا حقاً يعيشون حياتهم كلها في إطار من المعجزات فكل ما يثير لديهم الدهشة والحيرة لا يفسرونه إلا بالتدخل المباشر للإله أو للشيطان . لذلك اقتنعوا في سر بأن تلك الثورة الكبرى التي يأملونها لا بد لها من أن تقوم متى شاءها «يهوه» فظلوا يترقبون بوادرها في قلق يزداد عاماً بعد عام وكانوا ينتظرون منها إصلاح أمرهم واستعادة مجدهم والانتقام لذلتهم .

وإن هذا الأمل كان من شأنه - على نقيض ذلك - أن يدفعهم إلى مغامرات جرت عليهم أقسى البلاء والكوارث . فقد شرعوا في هذه المغامرات في عنف : مؤمنين بقرب اليوم المشرق الموعود وبأن إله السماوات لا بد أن يكون لهم ناصراً إن بادروا بنصرته . والعلة الأولى للحروب العنيفة التي قامت في القرنين الأول والثاني المسيحيين . والتي قضت على العدد العديد من اليهود وختمت مأساة أمتهم تلك العلة هي اقتناعهم بأن العالم الديوى على وشك الفناء ، وبأن العهد الذى قطعه رمل «يهوه» على أنفسهم في قديم الأزمان سوف يوفى به عاجلاً .

وفي إقليم الجليل - وهو الجزء الشمالى من فلسطين حيث ولد عيسى - لم تشارك غالبية الشعب من السذج البسطاء في حياة اليهود الجديدة إلا إبان عهد المكابيين ولم تختلط كثيراً بالطبقات العليا من الكهان . أما «الكبة» ، فلم يخل منهم الإقليم تماماً ، إلا أنهم لم يبلغوا فيه من الانتشار ما بلغوه في القدس أوفى

الأقاليم الوسطى من فلسطين وكذلك لم يصلوا فيه إلى تلك المرتبة الرفيعة من الشهرة والنفوذ التي كان يعتدّ بها غيرهم من أساتذة المدارس اليهودية . وكان المثل الشائع يقول : إن أهل الجليل يتميزون بالعناد وصلابة الرأي . ولعل مرجع ذلك أن جبالهم كانت في أول عهد الاستعمار اليوناني ملجأ لعصابات من الثوار القوميين ذوى البأس الشديد والمثابرة في مقاومتهم الرومان . وكان الناس يسخرون أيضاً من لهجتهم الرفيعة في الحديث ، إلا أنهم كانوا قد احتفظوا ، فيما يبدو ، بنوع من التقوى التلقائية المتحمسة في عمق عميق يدل على قوة الحيوية الدينية ، ولا تقيده دقة المراسيم والطقوس التي اختص بها الفريسيون في ريائهم الديني .

إذن ، فقد ولد عيسى ونشأ في بلد يهتم معظم الناس فيه بالمسائل الدينية أولاً . وخرج من بيئة شعبية يعين أفرادها على الأمل الساذج ترقبهم القلق لتلك المعجزة الباهرة التي سوف يثاب بها اليهود على تقواهم ، والتي سوف تجعلهم ملوكاً في الأرض ولكن هذا الشعب لا يجد لدى حكامه من القساوسة مشاركة في أمله ، بل يجدهم على حذر من المشاكل التي قد تترتب عليه فيما يتعلق بصلاتهم بالمستعمر الأجنبي ؛ بل نستطيع القول بأن إشارات العلماء التي كانت تسوس الشعب لم ترحب كثيراً بأى حركة نابعة من أعماق الجماهير وقد أكد أحد هؤلاء العلماء أن : « لا تقوى لدى الجهلاء » .

(ح)

فإذا وجد في هذه البيئة إنسان يتصف بالتقوى العميقة المخلصة مع بساطة التفكير ، ولم تؤثر على حيوية روحه نظريات الكنية ، بل نشأ متشبعاً بالقضايا

التي تشغل أهله ، والتي تطيع حياته الفكرية والدينية والخلقية بطابعها الخاص - إذا وجد هذا الإنسان ثم إذا أعطى القدرة الخارقة على أن يركز في نفسه كل شتات الأفكار السارية في الهواء الذي يتنسمه ، على أن يعيد تشكيلها من جديد في تأملاته (كدأب الملهمين) فلا غرابة في أن نراه يقوم بترجمة عقيدته من عالم الفكر إلى دنيا العمل^(١) . ولم يكن للأنبياء من إقليم الجليل في ذلك العصر سوى التبشير في أساليب تتفاوت أصالةً وابتكاراً - بقرب تحقيق الآمال . ويدو ، في الواقع أن هذا الوضع كان مبدءاً لقيام عيسى بالدعوة .

وإننا لنتفكر إلى الوثائق التي تسمح بالفاذ في تفصيل ظروف تكوينه الفكرى ، وفي حقيقة الأسباب التي دفعته إلى هذا الاتجاه . ولكننا لا نؤمن في كلا المجالين يجدوى البحث عن علل وشروح بالغة التعقيد .

إن سائر أناجيلنا تشير إلى رابطة معينة بين بدء حياته العامة ، وبين دعوة نبي آخر كان يحث على التوبة ، ويقول بقرب اليوم الموعود ، والأنجيل تؤكد هذه الرابطة صراحة ، وإن لم تفصلها في وضوح . والنبي المذكور هو يوحنا المعمدان . ولربما عرفه عيسى ، واتصل به ، وامثل قدوته عندما تملك أقطار نفسه تلك الحماسة القاهرة التي سرت في أعماقه حتى سيطرت على إرادته ، واندفع يبشر بدعوته لما جاء النبا بأن هيرودوس أمر بسجن يوحنا ، وذلك حتى لا يخلو ملكوت الله من نبي .

وخلاصة القول أن عيسى بدعوته إنما كان يحدد تلك السلسلة من أنبياء بني إسرائيل التي انقطعت بعد العودة من المنى والتي حاول أن يصل حلقاتها - من

(١) هذا ما يقوله المؤلف المسيحي ، أما نحن المسلمين فإننا نؤمن بأن عيسى عليه السلام : عبد الله

قبله - أنبياء آخرون منهم المعمدان . فقيامه بالدعوى - مها بدا اول الأمر أصيلاً مبتكراً - ليس فى الواقع ظاهرة استثنائية أو غريبة من ناحية الشكل . وهو يحل لنا الشك فى أمر معرفته منذ البداية للهدف الذى سعى إليه بالتحديد ، وتقديره لما مثله من دعوة . لقد كان يختلف عن المعمدان فى أسلوب التبشير ، إذ تخلى تماماً عن حياة الزهد وعنف الخطابة ، ولكنه لم يخرج عن المبادئ الأساسية التى كان يفسرها يوحنا :

« مملكة الله وشيكة ترقبوا الانقلاب العظيم الذى سوف يظهر العالم من الظلم والشر ، توبوا إن أردتم أن تحتلوا مكاناً بين صفوف المختارين » .
فما الدافع إلى دعوته هذه ؟ لأنه أحس بقوة خفية تدفعه إليها ؟ لأنه أحس بالرب فى أعماق صدره ، كما أحس به سائر الأنبياء اليهود من قبل ؟ وما معنى كلامه ؟ ثم كيف كان يتصور مملكة الله وساعتها ؟ إننا لسنا على علم بشيء من ذلك ، فالنصوص التى نستطيع الاعتماد عليها تعود كلها إلى عصر تغيرت خلاله فى أذهان المسيحيين ملامح مملكة الله ، بعد أن تأخرت عنهم ساعتها . غالب الأمر أنه كان يتصور تلك المملكة على النمط الذى تحدث الناس به من حوله ^(١) : مثال ذلك حلول عهد الفرج المادى بالنسبة إلى إسرائيل والإشراق المبين لبركة « يهوه » فى صورة لم يحددها خيال العامة قط تحديداً واضحاً . ولعل عيسى كذلك لم يتبين تلك الصورة ملموسة الملامح وما يدرينا . . لعله بدأ دعوته بالإشارة إلى عنف يوم البعث ، وإلى تلك الحرب الهائلة التى لم يكن رأى الشائع يشك فى أنها سوف تطحن الأرض عند مجيء المسيح المرتقب .

(١) نعود فنقول : إننا كمسلمين نؤمن بأن عيسى عليه السلام إنما كان يتلقى الوحي من الله سبحانه الذى اختاره للنبوّة والرسالة .

وأنجيلنا تحمل بعض آثار هذه العقيدة وإن كانت أغلب الدلائل عليها قد انمحت أو كادت - ولا عجب - من مثل تلك النصوص التي أريد بها أولاً إثبات أن المنقذ المنتظر هو نفسه عيسى . . مثال الحلم والسلام . .

وهل ظنّ عيسى أنه هو نفسه المسيح المنتظر؟ لقد شك الناس في ذلك وما زالوا يشكون ، مستندين إلى أدلة قوية : فهو لم يصف نفسه قط بأنه المسيح (وهي كلمة تعادل كلمة «كريستوس اليونانية») . والبحث الدقيق في أصل النصوص الإنجيلية التي تظهر فيها هذه الكلمة يؤكد أنها لا تنتمي بصلة إلى المنبعين الأساسيين للأنجيل وهما : مجموعة الحكم المسماة بـ «اللوجيا» ، ثم إنجيل مرقس . وأكثر النصوص صراحة في نسبة صفة المسيح إلى عيسى هي أقلها صموداً أمام النقد . ونضرب على ذلك مثلاً بالتصريح المعروف الذي يُروى أنه أدلى به أمام الكاهن قيافا (مرقس : ١٤/٦١) ، وهو نص لا يعتمد على سند ما ، ويغلب على الظن أنه لا يتجاوب مع واقع التاريخ .

يبد أن العصر الذي تم فيه تدوين الأنجيل على صورتها التي وصلت بها إلينا ، هذا العصر قد فرض على العقيدة الخاصة ببعث عيسى - تلك التي أصبحت الأساس الأول للمسيحية - أن تبرز للناس في إطار قوى ، مدعمة بأحاديث عيسى نفسه ، ولكن الفقهاء ما زالوا يميزون في مدارج اليقين التاريخي بين «كلمة الإنجيل» ، وبين «كلمة عيسى» .

والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين ، هي : أن عيسى لم يدّع قط أنه هو المسيح المنتظر ، (ولم يقل عن نفسه إنه «ابن الله» ، وذلك تعبير لم يكن في الواقع يمثّل - بالنسبة إلى اليهود - سوى خطأ لغوي فاحش ، وضرب من ضروب السفه في الدين . كذلك لا يسمح لنا أى نص من نصوص الأنجيل بإطلاق

تعبير « ابن الله » على عيسى ، فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، إنها اللغة التي استخدمها القديس بولس كما استخدمها مؤلف الإنجيل الرابع ، وقد وجدا فيها معاني عميقة وعلى قدر كاف من الوضوح بالنسبة إليهما^(١) .

ولو أراد أن يتخذ لقباً لا يتخذ لقب « ابن داود » المعروف بين بني إسرائيل ، والذي كانوا يعتبرونه لقب المنقذ المنتظر ولكنه لم يفعل . وهو لم يتخذ كذلك اللقب الذي يبدو أن أناجيلنا ترى فيه أخص خصائص شخصيته ورسالته ألا وهو : « ابن الإنسان » . أو على الأقل لم يستخدمه في معنى « المنقذ المنتظر » ، فاليهود في هذا العصر كانوا يجهلون هذا المعنى لتعبير « ابن الانسان » ، وإن كان النص المشهور من كتاب دانيال يقول (١٣/٧ - ١٤) :

« كنت أتأمل في رؤى الليل فإذا بي أرى ، قادمة على سحب السماء ، صورة كصورة ابن الانسان » .

لم يكن هذا النص قد استخدمه كهنة اليهود بعد في تصوير مجيء المسيح المنتظر ، ولم يدخل معابدهم بهذا المعنى إلا في عصر متأخر تحت تأثير المسيحية التي أذاعته .

ولقد اختلط الأمر في فترة من الفترات على بعض المؤمنين الذين لم يكونوا

(١) يمكن أن يعتبر اليهودي نفسه « عبداً ليهوه » ، لا « ابناً ليهوه » . ونعتقد أنه من المحتمل أن يكون عيسى قد تصور نفسه « عبد الله » ، وتقدم للنامس بهذه الصفة . والكلمة العبرية « عبد » كثيراً ما تترجم إلى اليونانية بكلمة تعني « خادماً » و « طفلاً » على حد سواء . وتطور كلمة « طفل » إلى كلمة « ابن » ليس بالأمر العسير . ولكن مفهوم « ابن الله » نبع من العالم الفكري اليوناني .

على معرفة كبيرة باللغة الآرامية ، إذ إن تعبير « ابن الانسان » في هذه اللغة يعنى فقط : « إنساناً » أو « رجلاً » ، فتباً لهؤلاء المؤمنين أن هذا التعبير الذى يلقونه أيضاً فى مجموعة الحكم المعروفة بـ « اللوجيا » لابد أن يحتوى على سر عميق . وقد ربطوا بينه وبين النص المائل من كتاب دانيال - وهو النص الذى لم يفهموه أيضاً - فقررُوا : أن « ابن الإنسان » مرادف مسيحى خاص لكلمة : « مسيح » . وتحليل النصوص يؤكد خطأ الذين ذهبوا هذا المذهب فى تأويل التعبير المذكور ، بل أن أغلب الفقرات التى يظهر فيها من الأناجيل يبدو أنها صدرت عن محررى هذه الأناجيل ، لا عن عيسى .

أما تلك التى يرجح أنها مبنية على حديث صحيح له . فلا تعدو الأربع أو الخمس^(١) ، ولا يمكن أن نصفها بأقل من أنها خاطئة أساساً فى ترجمتها للنص الأصلي ، ويجب إبدال تعبير « ابن الإنسان » فيها بكلمة « إنسان » مثال ذلك الفقرتين التاليتين :

« ابن آوى يلبجاً إلى جحره . . الإنسان لا يجد موضعاً يريح فيه رأسه » .
« وإذا ذكر أحدُ الإنسان بسوء ، فسوف يغفر له . أما من تحدث بسوء عن الروح القدس فلن يغفر له فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة » .

فن المؤكد إذن أن الروايات الأصيلة لم تجهر صراحة بأن عيسى قد أعلن نفسه مسيحاً . وإنما لتجد نفس الشك تجاه ما يسمى بـ « سر البعث » ، أى تلك الوصية التى يروى إنجيل مرقس أن عيسى أوصى بها تلاميذه فى مناسبات

(١) وهى : متى ٢٠/٨ (لوقا ٩/٥٠) ، ١١-١٩ (لوقا ٧-٣٤) ، ١٢-٣٢ (لوقا ١٢-١٠) ، ٩-٦ (لوقا ٥-٣٤ ومرقس ٢/١٠) ، ١٢/٨ (لوقا ٦-٣ ومرقس ٢-٢٨) .

مختلفة مع كثير من التشدد والإلحاح : بألا يفشوا شيئاً مما قد يتخيلونه أو يكشف لهم عنه من حقيقة مكانته . فما هو الهدف الذى كان يبغيه من إخفاء حقيقة شخصيته والتكتم على رسالته ، فى الوقت الذى كانت فيه دعوته بحاجة ملحة إلى إعلان سرهما لتحقيق مغزاها ؟

ومن ناحية أخرى فإن المؤرخ يواجه مشكلة شائكة إذا ما أراد إثبات أن فلاحاً من إقليم الجليل قد طور المثل الأعلى للبطل الذى تعلقت به آمال الشعب حتى أصبح الرسول الإلهى المرتقب يُصور على شاكلة الشهيد المتواضع المسلم ، بعد أن كان فى خيال الناس ملكاً جباراً منتصراً . وحاول بعض الفقهاء أن يتغلبوا على هذه العقبات وهذا التعارض ، فتقدموا باعتبارات مختلفة ترمى إلى إثبات القول بأن عيسى ، وإن لم يعلن عن نفسه أنه هو المسيح المنتظر ، قد ظن ذلك وآمن به ، ولم ينه تلاميذه عن ظنه والإيمان به ، وصُلب لأن بيلاطس ظن ذلك أيضاً . ولم ينه عيسى عن ظنه ، ولو لم يؤمن الجميع بالأمر لما قُدِّر للحواريين أن يقتنعوا ببعث المصلوب من بين الأموات .

وما زال من الطبيعى أن نعجب من عدم توضيح عيسى لهذه المسألة الأساسية . وما زال فى الإمكان أن ننظر إلى التصريحات الغامضة أو الإشارات التى تنسبها إليه النصوص ، على أنها من صنع المحررين ، لا تعترف بها الروايات الأصلية ، كما يمكننا القول بأن الحاكم الرومانى لم يحتج إلى تصريح عيسى بأنه المسيح المرتقب حتى يسعى إلى التخلص من رجل فوضوى يبشر بقرب حلول مملكة الله ، أى بقرب نهاية السيطرة الرومانية .

وأخيراً لعلنا لا نغرق فى الظن إن قلنا : إن حب الحواريين لأستاذهم وثقتهم به كانا كفيلين بإحداث التهيؤات التى أدت إلى غرس الإيمان الأكيد ببعثه فى

نفوسهم . وقد جاء الاعتقاد بأنه أصبح « مسيحاً بإرادة الله » (على حد التعبير المنسوب إلى القديس بطرس في « أعمال الرسل » ٣٦/٢) لتفسير معجزة بعثه . فهناك إذن في الواقع ، حجاج لها قدر كبير من المنطق والقوة ، تدفع إلى الاعتقاد بأن عيسى قد اعتبر نفسه رسولا تحته روح « يهوه » على إعلان قرب تحقيق الأمل الأكبر وضرورة التمهيد له ، وبأنه قد سلك مسلكا يتمشى مع هذا الإيمان . ولكنه حتى في تلك الحالة قد نتساءل : هل كان عيسى قد آمن بأن مكانة مختارة سوف تخصص له في « مملكة المستقبل » مكانة لا بد لها من أن تلتقى وتتشابه مع مكانة المسيح نفسه ؟ وأجاب الكثير من فطاحل الفقهاء - أمثال لوازي - بالإيجاب عن هذا السؤال . . ومن العسير أن تأتي بالبراهين الأكيدة لهدم رأيهم ، ولكنه من العسير على حد سواء أن نسايرهم في هذا الرأي دون تحفظ .

فالوصول إلى اليقين في مثل هذه الحال أمر بعيد المنال .